

صور من عناصر القصة في الحديث النبوي

إعداد:

عمر عليّ حطيجه

Umaraliyuhdi08@gmail.com

GSM:+2348035180034

قسم اللغة العربيّة، كليّة التربية لولاية جفاو، غمّل

الملخص

إن من يمر على الأسلوب النبوي يصادف فيه الوحدة الفنية محكمة بعبارات راقية بعيدة عن الغموض والإبهام مع التزامه بمقتضى الحال. ويحتضن أسلوبه عليه السلام في القصص بدعوة خالصة ونسيج قوي متماسك يغذي بها المشاعر ويعبئ بها النفوس تشبيها بمبادئ الدين في أدق التصوير والتلوين. فتقوم قصصه عليه الصلاة والسلام مقام عشرات من الخطب المنبرية في الصيانة والعفاف والإيجاز والإطناب اعتبارا بحال المخاطبين. ويتجلى ذلك عند توزيع عناصر القصة في مسرح العمل الأدبي حيث يثبت كل عنصر من العناصر في أروع موقفه.

المقدمة:

منذ فجر الحياة البشرية عرف الإنسان بولعه الشديد بسماع القصص، وليست آثار القصص محصورة في نفوس الأطفال بل تمتد إلى مختلف مراحل العمر خلال سردها أو سماعها أو قراءتها. بل إنهم كثيرا ما يقلدون أقوال ما يجري من القصة وما فيها من أحداث وأخلاق وسلوك في حياتهم العلمية الواقعية اليومية.

ثم إن هذه الآثار للقصة تصاحب الفرد الإنساني في جميع مراحل النمو النفسي والتربوي والاجتماعي، لذا فالإنسان في جميع مراحل حياته يخضع لتأثير القصة وإن اختلف مواضع القصة وطبيعتها باختلاف مراحل النمو التكوينية، وباختلاف المستويات العقلية والاجتماعية والمزاجية.

ومن هذا المنطلق أبرز القرآن الكريم والسنة النبوية أهمية القصص وتأثيرها النفسي والأخلاقي في التربية وتهذيب النفوس. لتكون سلاحاً يتسلح به في التعليم والإرشاد والوعيد والتعظ منها الإنسان في جميع مستويات حياته. فعلى ضوء كون القصة إحدى أسلحة النبي في الوعظ والإرشاد وما امتازت به القصص في توظيف العناصر الأساسية لسرد القصص، اختار الباحث حديث "انطباق الصخرة على ثلاثة نفر" ليدرس عناصر القصة في الحديث، وما يتجلى فيها من الروعة والمطابقة. ويحتوي البحث على العناصر التالية:

- مفهوم القصة، أهميتها وأنواعها.
- أسلوب سرد القصة
- مكانة القصة في العهد النبوي
- دراسة عناصر القصة في الحديث
- الخاتمة والمراجع

مفهوم القصة

المفهوم المعجمي:

القصة في لغة العرب تعني "الأخبار المروية" و"الأنباء المحكية" وقد سُمي القرآن ما تحدّث عنه من أنباء الغابرين "قصصاً" في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُقَصُّ عَلَيْكَ

مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ﴿ (سورة طه: ٩٩). وسمى الله خبر والد الفتاتين اللتين سقا لهما بما كان موسى، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ (سورة القصص: ٢٥) وأصل القصة عند العرب تتبع الأثر، فالعليم بالآثار يسير وراء من يريد معرفة خبره، ويتتبع أثره، حتى ينتهي إلى موضعه الذي حلّ فيه. وسميت حكاية الأخبار قصصا لأن القاص يتتبع أحداث القصة كما وقعت، ويتتبع ألفاظها ومعانيها. وقد ورد تتبع الأثر "قصصا" في قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (سورة الكهف: ٦٤).

المفهوم الاصطلاحي للقصة

تعرف القصة بأنها «فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود»^(١).

كما عرّفت بأنها «فن أدبي قديم صاحب الأمم من عهد البداوة وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانتها ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفّته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السموّ والكمال»^(٢).

أهمية القصة وأنواعها

القصص لون من ألوان الأدب، يقبل الناس عليه ما لا يقبلون على غيره، فهو محبوب إلى النفوس، أثير عند الناس، تهواه النفوس وتطرب له القلوب وتصغي إليه الأسماء. ولأهميته فقد تعدّدت أنواعه في هذا العصر، فمنه الرواية وهي القصة الطويلة، الكثيرة الأشخاص، المتشابهة المواقف والحوادث. ومنه القصة القصيرة،

وتسمى الأقصوبة، ومنه القصص الخيالية، والقصص الواقعية والقصص الرمزية. ومن القصص الخيالية القصص الحيوانية، التي يجعل المؤلف أبطال قصته حيوانات تتكلم وتفكر، وتدبر وتنطق بالحكمة.

أسلوب القصة

- لقد أثبت الباحثون في مجال القصة الأسلوب الذي يميّز القصة عما سواها من الألوان الأدبية، وحدّدوا بعض هذه الخصائص في النقاط التالية:
- (١) أن الصفة العامة لخطة الرواية هي الاطراد والتسلسل بحيث يشعر القارئ أنه مسوق دائما إلى غاية، فهو في ترقّب وشوق إلى النهاية.
 - (٢) تكون القصة منسقة تنسيقاً منطقيّاً وتوجر،
 - (٣) تكون القصة ذات مغزى رئيس يفهم من السياق بطريقة غير مباشرة.
 - (٤) يجب أن تكون العبارات سهلة واضحة، لأن القارئ معني بمجرى حوادث القصة.
 - (٥) تنوّع العبارات بين الرقة والقوة حسب المواقف والشخصيات.
 - (٦) تنوّع الأسلوب بين القصص والوصف والحوار.
 - (٧) من مظاهر الأسلوب القصصي المبالغة أحيانا للتنبيه إلى النقاط المهمة، وكذلك المفاجآت والرمز، ليفتح المجال للخيال.
 - (٨) وقد يدخل الحب كعنصر ثانوي في القصص لقوّته، ولأنه عاطفة مشتركة بين البشر^(٣).

القصة ومكانتها في العهد النبوي

كانت القصة الهادفة إحدى الوسائل يتبعها النبي صلى الله عليه وسلم في الإقناع والتأثير، وقد نقلت كتب الحديث قصصا كثيرة مما حكى الرسول صلى

الله عليه وسلم، فكان بذلك أول من سلك منهج القرآن الكريم، وترسم خطاه في توظيف القصة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادئ الإسلام في النفوس. حيث نجده صلى الله عليه وسلم يتخذ من القصة أسلوباً مهماً من أساليب الدعوة والتربية، يجمعها قيم الإسلام ومعانيه، ويرى عليها الصحابة من رعييل الإسلام الأول، ويوجههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدة في الفكر والتصور، وطريقة في السلوك وواقع الحياة، بأساليب وضاءة وألغاز دقيقة مع المطابقة لمقتضى الحال.

وبهذا فإن استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم القصة في دعوته وتربيته كان يستجيب لمناخ بيئي يطلب القصة ويرغب الاستماع إليها، وهذا الإقبال عنصر حيوي أعطى القصة أهمية بالغة في نظر الرسول المعلم، مما جعله يستعمل القصة في حديثه إلى المسلمين من صحابته الكرام على نطاق واسع جداً بأساليب متباينة في موضوعات شتى^(٤).

ومن هذا المنطلق سيقوم الباحث بتحليل قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة لدراسة سمات الأسلوب النبوي وما يتجلى فيه من الروعة والجمال، وما يحتضنه من الجزالة والليونة مع مراعاة حال المخاطبين.

دراسة قصة ثلاث نفر انطبقت على غارهم الصخرة موضوع القصة:

موضوع القصة مكون من الجملة الاسمية التي تفيد الثبات والدوام، متوجهة بصراع بين القوة الطبيعية والإنسانية حيث استهلقت القصة بإيراد ما وقع على نفر من التعرض للهلاك وانتهت بسلسلة من الوقائع التي دفعت نفر إلى برّ الأمان.

الحدث

إن الأحداث عنصر هام من عناصر القصة، فتحركها تتحرك القصة، فيتجلى فيه ترتيبها للأحداث ترتيباً لائقاً وتتسم بوحدة عضوية فائقة. توالى الأحداث في هذه القصة مسرعة بنسج قوي متماسك في ذكر الأشخاص والأمطار وفرار إلى الجبل وانطباع الصخرة، فإن هذه المفاجأة تجذب انتباه السامع فيغشاه الشوق إلى تنمة ما وقع بين القوة الطبيعية والإنسانية. فهي أحداث متسلسلة تعبر عن الأحوال المتباينة التي فاجأت أبطال القصة، والصراع الذي وقع بينهم والقوى الطبيعية وما تم تصويره من جوانب نفسياتهم خلال هذه الفترة المعينة. وهذه الأحداث المتسلسلة في القصة هو ما يسميه النقاد "الإيقاع" وهو ما يرتبط بحركة الأحداث في القصة وتطور الشخصيات وتصوير الجوانب النفسية^(٥).

فكرة النص

تتجلى فكرة هذا النص (القصة) على أهمية العمل الصالح في الحياة، إذ ينقذ صاحبه من الضيق والهلاك، ويفرجه من الكرب. فهذه هي الفكرة الأساسية التي ينطلق معها النص. وهناك أفكار فرعية أخرى تعتمد عليها القصة منها:

(١) حب الوالدين والإحسان إليهما.

(٢) الرجوع عن المعصية بعد الإقدام عليها.

(٣) أداء حق الأجير.

فهذه الأفكار الفرعية المذكورة أفكار قوية تؤدي إلى الفكرة الأساسية وهي تقرير أهمية العمل الصالح، الدالة عليها بأحداثها الوضائية، فأورد النبي صلى الله عليه وسلم القصة بأفكارها المتباينة ليمهد للبشرية أصناف أعمال الطاعة التي

تنقذ الإنسان من الضيق والهلاك. مع محافظته صلى الله عليه وسلم لخيطو القصة وتسلسلها وتعدد الأفكار في القصة ميزة من ميزاتهما، يقول الناقد غنيمي هلال "وقد تتشعب الأفكار في موضوع القصة، وتعدد فيها الشخصيات والمصائر حتى تخفى وحدتها على القارئ لأول وهلة، ولكنه - حين يدفق النظر - يرى وراء هذا التعدد محورا ترتكز عليه القصة"^(٦).

الحبكة

أما الحبكة فهي تسلسل أحداث القصة وارتباطها. فقد كانت هذه القصة محكمة ذات أحداث مترابطة متلاحمة تتشابك حتى تبلغ الذروة ثم تنحدر نحو الحل. فالمفاجأة التي حلت على نفر من نزول المطر وفرار إلى الجبل وانطباق الصخرة، أحداث متسلسلة ومحكمة حيث يرتبط كل حدث مع ما يلاحقه في قالب مطرب مع عدوية الإيقاع. فتصوير نفسانيتهم عند انطباق الصخرة وتذكّار ما أسلفوا من الطاعات كل يتوسل به إلى الله بدءاً من الأول إلى الثالث، وحلول نتائج سارة حين تزحزحت الصخرة هذا يعبر بكل معنى الكلمة عما للقصة من نسيج قوي متماسك وتأدية تامة. وتسلط ضوءاً على ما للقاص من عبقرية فذة وأسلوب محكم وسرد خالص مع الامتياز في مراعاة الحوادث وتسلسلها، وتميز القصة بسرعة الحوادث من نزول الأمطار والفرار إلى الجبل، وحينما انطبقت الصخرة تغير وضع القصة إلى الإبطاء لطغيان الحالة النفسية على العملية، فاتضح موجات القصة بمختلف أنواعها وفقاً للأحداث الناشئة. فيتجلى في هذا الإبداع النبوي في سرد القصة سرعة وبطأ. يقول النقاد "ويتنوع القاص قصته بين السرعة في الحركة والبطء... فتظهر حركة القصة في موجات مختلفة"^(٧).

البيئة

يتجلى امتياز القصة بمراعاة البيئتين: "الزمنية والمكانية" في سردها. فهي مقيدة بالظروف والملابسات التي تضرب فيها تلك الأحداث والشخوص بحيث يحتفظ بمجال طبيعي واجتماعي^(٨).

فعناصر المناخ البارزة في القصة هما الغار والصخرة، وعليهما يعتمد البناء الأدبي للقصة، وهي طبيعة متواجدة في الأراضي التي ذكرت فيها القصة، وموافقة للغرض الأساسي من القصة كانت الأراضي زخرة بهذا المناخ المتميز، حيث كان الغار ملجأً آمناً لمن فاجتته الطبيعة بأمتارها وعواصفها. ومما يضفي ضوءاً على البيئة الزمنية والمكانية للقصة ارتباطها بالمواشي، حيث كانت المواشي من معالم الغني. فيلمع من هذا التزام النبي صلى الله عليه وسلم بالبيئة المناسبة عند سرد القصة مع صلتها الوطيدة بالجو العام للقصة، إذ ليست القصة معزولة عن مجالها الطبيعي. ويقول النقاد في ذلك "يستلزم لمن أراد تصوير موقعا بشخصياته وأبطاله أن يحقق ارتباطهم بمجتمع خاص في فترة معينة وطبيعة خاصة، وإلا جاءت القصة متكلفة"^(٩).

الشخصيات

إن الشخصية من أهم العوامل في الآثار الأدبية، وتعد بمثابة العمود الفقري للقصة، وهي التي تبعث عصر الحركة والحيوية في مسارح الحدث^(١٠). وتتفاوت مرتبة الشخصيات في القصص وذلك حسب الأدوار التي تقوم بها كل شخصية في محور القصة، فتوجد فيها الشخصيات الأساسية والثانوية طبقاً للدور الذي ينقله كل في أحداث القصة.

فتنطوي هذه القصة النبوية على ثلاثة أشخاص، الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم القوى المحركة للقصة، كما تلي قصة كل واحد منهم شخصيات فرعية دار معها حدث من أحداث القصة. منها مشهد البار لوالديه وما لاقاه أولاده من الجوع. والمشهد الثاني صراع الرجل مع ابنة عمه، والمشهد الثالث الآخر مع أجيده.

فانطلاق القصة مع هذه الشخصيات الأساسية بنظيرتها الثانوية بث للقصة عناصر الحيوية والحركة، مع ما يتجلى فيها من بث المشاعر في مختلف طبقاتها. فظهور هذه الشخصيات الثلاثة التي مرت عليهم القصة من بدايتها إلى نهايتها يشير إلى عهوديتهم للقصة، أما غيرهم من شخصيات القصة فيظهر كل في دوره ويختفي لكونهم شخصيات ثانوية للقصة. وعلى هذا الضرب يقول النقاد: على القاص أو الكاتب في طريقة عرض شخصياته أن يصورهم من خلال حركتهم ومواقفهم^(١١).

الأسلوب واللغة

وقد عرف النقاد الأسلوب بأنه الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره، ويبين بها ما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات^(١٢). فمن هذا المنطلق يفهم أن الأسلوب بمعناه العام هو طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفهم للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير أو ضرب من النظم والطريقة فيه^(١٣). وهو الأسلوب الأدبي.

انطلاقاً مما ذكر يتجلى لقارئ القصص النبوية ما يتسم به أسلوبه صلى الله عليه وسلم من المرونة يؤدي به خيوط تفكيره وأحاسيسه بألفاظ راقية وتراكيب

محكمة، وأسلوب وضاء رصين، فيخلق فيه طابع تميزه بها عن أساليب غيره، مع ما يظهر فيها من الإشارات تدل عليه دلالة لا يشارك فيها سواه. فيعرض القصص مراعيًا مقتضى الحال وأصناف المخاطبين أو السامعين ولا غرابة في هذه الجرأة المتمكنة لأن معينه في ذلك هو محكم التنزيل.

وإذا مال القارئ إلى أسلوب القصة يصادف تعبيرات دقيقة بإجاءات نفسية ممتازة ويظهر ذلك في قوله "فالوالدان يغطان في النوم والابن قائم على رأسيهما، والصبية يتضاغون". ويتحلى فيما سبق من مقابلة نفسية كبيرة بين بكاء الأطفال وتصبُّر الولد وتماسكه حتى يستيقظ الوالدان. واستقر الهدف الخلقى من مراعاة حقوق الوالدين دون أن ينبع من الوعظ، ولكن في رسم المشهد في أدق صورته، مع إطناب محكم مطابق لمقتضى الحال.

وفي مشهد آخر تصور الأحداث جوامع الكلم في أسلوب موجز ليترك للقارئ أو المستمع إطنابا نفسيا يفيض ويمتد، فلاحظ أيها القارئ الاقتصاد في قوله: "فطلبت منها" دون أن يوضح المطلوب، وهو تعبير محكم يحتضن تحته عشرات الصفحات عند بيان المطلوب. وكذلك عند قوله: "فقمت"، متحرجا في ذلك أن يطنب في قوله مستحيا في نفسي مستحيا إلى هاتف الضمير.

ثم يصور هذه الكناية البديعة الرائعة في قوله: "اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه" فأفاض فيه لونا تعبيريًا صافيا، يتضح فيه ما يغذى الشعور ويزيل طمعة النفس مع ميلها إلى الخوف والانتباه تحضنها السكينة، وتحضير عظمة الخالق على ما كادت تُغيِّره نفسه من الفساد.

وفي جانب آخر، امتازت القصة بتنوع أساليبها وتموجاتها طبقا للأحداث التي تمر عليها بين الإيجاز والإطناب والإيقاعات المناسبة، الأمر الذي يوضح للقارئ

خصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام في تطريز القصص بظواهرها المتباينة، يقول الناقد غنيمي: "وينبغي أن يتبع القصة في السرعة والبطء في الأحداث بقصر الجمل وطولها مع الاعتماد على موسيقي الجميل التي تتلاءم مع إبقاء الحوادث، وكل هذا يتعلق بعبقرية القاص وقدرته على الإفادة من تجاربه الأدبية، وهو أمر يمس الصياغة الفنية للمضمون ثم الأسلوب في وقت معاً^(١٤).

ولا شك أن القيم التعبيرية التي استوظفها الرسول صلى الله عليه وسلم في طريقة العرض مناسبة وتُعَيَّن قيمتها في تحديد القصة. فتأمل قول الفتاة: "اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه" فهي لغة سهلة وبطيئة تتوافق لغة وأسلوباً مع روح وعاطفة هذا الجنس اللطيف. وقد أعرب الشايب عن ذلك قائلاً: يستخدم القاص عبارة متنوعة بين الرقة والقوة حسب المواقف والشخصيات، فلغة الرجال غير لغة النساء ومواقف الوعيد تخالف مواقف العتاب"^(١٥).

الصراع:

إن من أروع ما يتجلى في هذه القصة النبوية الصراع الذي دار بين القوى البشرية والقوى الطبيعية، فنزول المطر والفرار إلى الغار معاناة ابتلي بها هذا النفر، وهو صراع عجزت البشرية عن دفاع نفسها عنه إلا بالفرار والبحث عن مكان آمن. وكما أن انطباق الصخرة تحدى هذا النفر عن التخلص من هذا المأزق بقواهم. وبلجوئهم إلى ما أسلفوا من الخير غلب إخلاصهم في أعمالهم السابقة على القوى الطبيعية فحزحت الصخرة ونجوا من الهلاك.

كما يلاحظ الصراع الذي حدث بين الإنسان ونفسه، حيث سوّلت نفس أحد شخصيات القصة أن يزيل شهوته بابنة عمّه، فأنقذته النفس المطمئنة مما

دعته إليه النفس العمارة بالسوء من ارتكاب المحارم، فتراجع عن فعله. فالصراع الذي دار بين شهواته أي النفس العمارة بالسوء مع النفس المطمئنة صراع فتاك، إلا أن نفسه المطمئنة غلبت على شهوته، فنجا وفاز، فهذه السلسلة من الصراعات التي هيمنت على القصة تعبر عن عبقرية القاص وعمق فكره في تطوير القصة وأكساها لونا من البهاء وحسن الإبداع.

العقد والحل:

وانتهت القصة بأدوارها المتباينة تضيفي بكل صراحة إلى أهمية العمل الصالح، الأمر الذي يرفع الإنسان إلى أعلى المراتب، وينال بها رضا خالقه عز وجل بأساليب وضاءة يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

الخاتمة

لقد عالجت المقالة مفهوم القصة وما يتعلق بها من أهمية وأنواع، وسرد فيها الباحث الأسلوب الذي يبني عليها القصة، كما تطرقت المقالة إلى مكانة القصة في العهد النبوي، واختار الباحث الحديث الذي أورد فيه النبي صلى الله عليه وسلم قصة ثلاث نفر الذين انطبقت على غارهم الصخرة كنموذج. واستعان الباحث بعناصر القصة لدى النقاد لتحليلها والوقوف على قيمها التعبيرية وبواعثها العاطفية ومطابقتها بمقتضى حال المخاطبين. كما أشار بأنها لوحة فنية تعبر عن سمو قصص النبوي. واختتمت المقالة بذكر الهوامش والمراجع.

الهوامش والمرجع

- (١) الأشقر، عمر سليمان، قصص الرسول وأصحابه في صحيح الحديث النبوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط/١، ٢٠٠٧م. ص: ١٢
- (٢) الأشقر، محمد سليمان عبدالله، معجم علوم اللغة العربية، ص: ٣٢٠
- (٣) الأشقر، عمر سليمان، قصص الرسول وأصحابه في صحيح الحديث النبوي، المرجع السابق، ص: ١٣
- (٤) غنيمي، هلال محمد، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص: ٥٢٣
- (٥) غنيمي، المرجع السابق، ص: ٥١١
- (٦) غنيمي، المرجع السابق، ص: ٥٢٣
- (٧) شوقي ضيف، النقد الأدبي، ص: ٢٣
- (٨) غنيمي، المرجع السابق، ص: ٥٢٣
- (٩) وادي، طه، دراسات في النقد والرواية، ص: ٢٥
- (١٠) غنيمي، المرجع السابق، ص: ٥١٥
- (١١) بدوي، أحمد، أسس النقد عند العرب، دار نهضة مصر للنشر، ط/٨، ٢٠١١م. ص: ٤٥١
- (١٢) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مطبعة المنار، ١٣٣١هـ، ص: ٣٦١
- (١٣) غنيمي، المرجع السابق، ص: ٥٢٣
- (١٤) غنيمي، المرجع السابق، ص: ٥٢٣
- (١٥) الشايب، أحمد، دراسات بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ص: ١٠٩-١١٠.